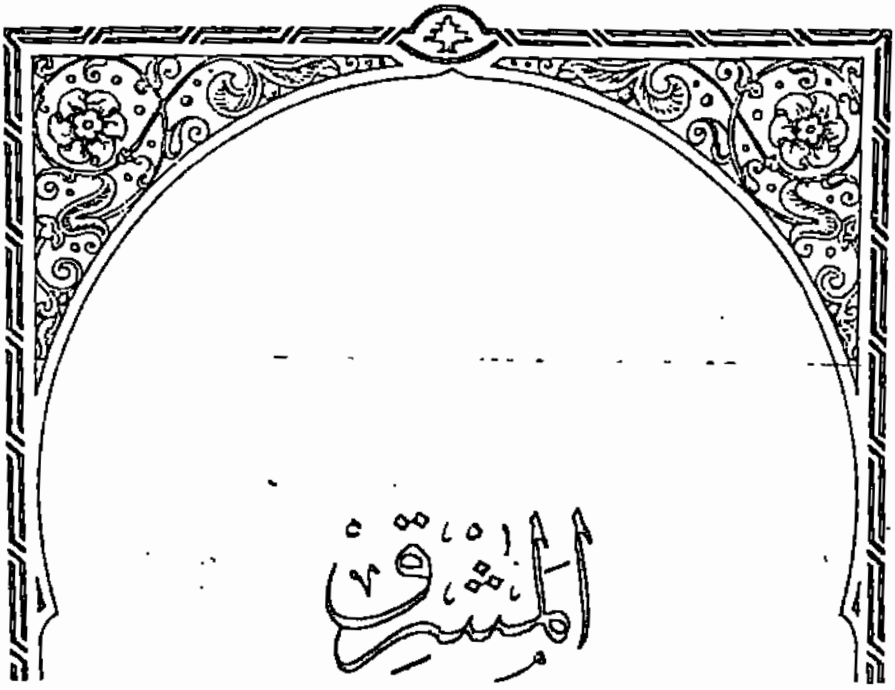


السنة الثالثة والخمسون ك ٢ – شباط ١٩٥٩

# كتاب دعوة القسوس

## نشره لاول مرة عن نسخة يتيمة وحققه

الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

بين الصعوبات التي تعترض المحقق في مخلفات العصور الغابرة ، اختفاء الكنوز الخطية وراء جدران المكتبات التي لا تكشف عن اسرارها بواسطة اللوائح الوافية . ولكن هناك من رجال العلم من يُسهّل لهم الحظ الاطلاع على تلك الكنوز بيد انهم يتبجحون بهذه الاكتشافات كانهم اكتشفوا عالماً جديداً ويلومون غيرهم على جهلها . وانى لهؤلاء ان يطلعوا عليها وقد غابت في دياجير الاديرة أو في اقبية البيوتات القديمة . ونحن نقول هذا ونعني بقولنا ناقداً نعود يوماً الى ما قاله في اللائحة التي ادرجناها في الـ Mélanges de l'U. S. J. 1957 لمخطوطات المكتبة الشرقية . فان العلم الصرف لا يتطلّب من المحقق سوى ان يُطلع القارئ على نتيجة تفتيشاته ولا يُؤخذ عليه ما جهله اذا كان الجهل جهلاً لا تجاهلاً ولم يكن هناك من طريقة مؤدية لتلافيه . واذا قامت بعد

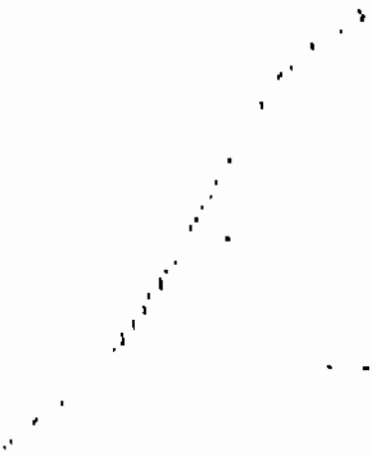

ذلك دلائل اخرى تسمح بزيادة الايضاح وبفيض الاطلاع فأهلًا بها ولكن دون تبجّح ولا انانية ولا كبرياء .

بينما كنّا نعدّ لوائح اعداد المشرق الخمسين سنة ١٩٥٢ وقعنا على « خمريات نصرانية » يتغزّل فيها المؤلف بالخمرة المقدسة فراقتنا واخذنا نفتش عن مؤلفها الى ان اشترينا مكتبة المرحوم الاستاذ حبيب زيات وصادفنا فيها كتاب « دعوة القسوس » ووقفنا على الابيات التي كانت راعت انتباهنا فقررنا نشره ورحنا نفتش له عن رفيق ، فبتنا مخذولين . فنبّهنا عن اصله ونحن نطلع القارئ على نتيجة ما توصّلنا اليه من معلومات :

كان اول من نشر مقاطع من كتاب دعوة القسوس الاب لويس شيخو ولكنه زاد في ملاحظة انه « لم يجد ذكرًا لهذا الكتاب في ما لديه من التواريخ »[1] . وفي سنة ١٩٠٩ من مجلة المشرق عاد المؤلف المذكور فتكلم عن دعوة القسوس وعزاه الى ابن بطلان حيث قال : « . . . لابن بطلان اشعار كثيرة ونوادر ظريفة ومن كتبه دعوة الاطباء الفه للامير نصر الدولة احمد بن مروان وكتاب دعوة القسوس الذي وجدنا منه قطعًا فنشرناها في المشرق (٦ : ٤٦٦) . وقد صنّف كتابًا بهذا الاسم القس يعقوب الماردائي على ما روى ابن العسّال في مقدمة اصول الدين »[2] . ولكن الاب شيخو لم يعطنا برهانًا نتيقّن به من صحة نسبة ما نُشر في المشرق ١٩٠٢ الى ابن بطلان . ولمَ لم ينسبه الى يعقوب الماردائي ؟

وقد ذكر الدكتور جورج گراف في مجلة « الشرق المسيحي » لائحة لمخطوطات سريانية اذ في سياق الكلام على ذكر الكتاب الذي نحن بصدده فقال : « . . . يذكر ابن العسّال هكذا : القس الفاضل يعقوب الماردائي صاحب كتاب دعوة القسوس »[3] . . .

وفي سنة ١٩٢٤ عاد شيخو في كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية على ذكر الماردائي فقال :

« من كتبة القرن الثاني عشر ذكره ابن العسّال في قائمة الكتبة التي قدمها على كتابه اصول الدين ونسب اليه كتاب دعوة القسوس »[4] .

---

١) المشرق ٥ (١٩٠٢) ص ٤٦٦ .
٢) « ١٢ (١٩٠٩) ص ٤٩١ .
٣) Oriens Christianus 1912. Leipzig, p. 214
٤) ص ٢١٥

ونعجب تمام العجب اذ ان المؤلف نفسه في الكتاب عينه عند ذكر ابن بطلان لم ينسب اليه في قائمة الكتب التي ألفها كتاب دعوة القسوس كما نسبه اليه في المشرق سنة ١٩٠٩[1] وقد سكت ايضاً عن ذكر هذا الكتاب ايضاً في كلامه عن ابن بطلان في المشرق سنة ١٩٢٥[2].

اما الدكتور گراف فقد اتى ثلاث مرات على ذكر كتاب دعوة القسوس. ففي كتابه «تاريخ الاداب المسيحية العربية» الجزء الثاني ذكر مؤلفين نُسب اليهم تأليف الكتاب المذكور. ففي الصفحة ٧١ يقول ان اغاتون مطران حمص كتب في الربع الاول من القرن الثاني عشر «ايضاح الايمان وسر الكهنوت» — وذكره سباط تحت العدد ٢٥٣٧ من فهرسه — و«دعوة القسوس»[3]. وفي الصفحة ٢٧٠ يعود الى الكلام عن اغاتون دون ان ينسب اليه الكتاب المقدم ذكره. ولكنه في هذه الصفحة يتكلم عن يعقوب الماردائي الذي حفظ ذكره ابن العسّال في «كتاب مجموع اصول الدين ومسموع محصول اليقين»[4] وينسب اليه كتاب دعوة القسوس[5]. وفي كلامه عن ابن بطلان ينسب اليه ايضاً الكتاب المذكور[6].

بين هذا التأرجح في الاراء يصعب على المحقق ان ينسب بدقة كتاب دعوة القسوس الذي نهتم بنشره وقد طارت الاوراق الاولى منه ولم يضع الناسخ في آخره اي ذكر للمؤلف. والحالة هذه، فاننا نترك ليوم ربما اتى حيث نعثر على رفيق لكتابنا يوضح امامنا سؤالاً يتركنا في ارتباك وحيرة. ولكننا نميل فننسبه الى الماردائي.

---

١) ص ٥

٢) ص ٦٥٩ وما يتبع.

٣) Geschichte der christlichen arabischen Literatur, Città del Vaticano, II, 1947, p. 71. ذكر سباط في فهرسه كتاب دعوة القسوس تحت العدد ٢٥٣٨

٤) الكتاب نفسه، الجزء نفسه، ص ٢٧٠

٥) راجع مخطوطات باريس رقم ٣٠٠، ص ٢١٦–٢١٧. من ذكر هذا المخطوط يتضح ان المخطوط الذي نشره هو ليعقوب الماردائي.

٦) الكتاب نفسه، الجزء نفسه ص ١٩١

المخطوط

مخطوطنا مبتور من عدد قليل من اوراقه في اوله وفي سياق الكلام. ضاعت ولم نتوصل الى التعويض عنها .

خطّ مؤلفته خطٌّ قديم كنسيّ ، بقيت اغلب حروفه مهملة. طوله ١٨ سنتيمترًا وعرضه ١٤ سنتيمترًا وفي كل صفحة ١٤ سطرًا.

يقصّ علينا باسلوب وضّاح دعوة قسّ الى مائدة امير ، يأخذ بالمرح يفتن المسامع والقلوب ، ويعود بنا الى عصور انقضت ويذكّرنا بابيات لابن المعتز او ببعض تواريخ الاديرة للشابشتي ؛ فيه وصف المدامة ونزعة الى ذكر الخمرة المقدسة في القربان . خمريّات في مخطوط يتيم . وها نحن ننشره، مع ما ينقصه من الصفحات واثقين. ان في قراءته متعة وفي كلامه الوقّاد صور لعصر غابر وكأنه حيّ .

# كتاب دعوة القسوس

[١] . . . هـذا حظي المنجوس . وطالعي المنحوس . ان حدثت نفسي نسبت الى الافتخار . وان اظهرت ما في قلبي دعيت بالمنافق المكّار . ثم انه عاد يبسطني ويمازحني ويحادثني . والبشاشة لايحه من غرته . والفرحه ظاهرة من طلعته . ويقول يا اخي فمع طول هذا الكلام . افهل استعملت يومنا هذا شيء من الطعام . ام نحن جميعاً الى الان صيام . قلت لا والذي فصل يوصولي الى العالم الضرّ . ما ذقت حلو ولا مر . وهانذ عندك من الفجر وقد تفرغ محيّ من الفسر . فقال قم بنا فقد اخذ منا الجوع نصيباً اكثر . وحظاً اوفر . فقمت معه قاصداً مربعه فلما وصلنا داره . واتمينا ديارة . التفت الي باب الدار قايلاً سبحان مغيّر الساعات . ومقلب الاوقات . هذا الباب من ايام الخير اعادها الله . صنعه نجار كان من رعيتي رحمه الله . لم يلتمس مني المرحوم اجاره ولا جزا . الا الصلوات[٢]والدعا . واليوم لو طلبت دفة من البلوط المنحوس . ما اعطيتها الا بالفلوس . ثم سعي بين يدي قايلا ادخل فالمرضع بحكمك وامرك . قلت بل يمد الله شوط عمرك . فعندما دخلنا الدهليز رفع رأسه الي سقفه . وجعل يعبر يده على لحيته وانفه . ثم قال يا اخي الا ترى هذه الطباق المروقه . والالوان والادهان الحسنه المنقفة . وحق من يجمع شملك باهلك قريباً . وكان الله صيحاً مجيباً . ما خسرت عليها جميعها لا فلس ولا دينار . ولا عود ولا مسمار . ولكن كان يحكمي سوق النجارين . واكبر الحدادين . فمنهم من كان يرجوني لوقت الوفاة . وفيهم من كان يطلب مني الدعا والصلاة . ومنهم من كان لي عليه حق تحيير البنين والبنات . وبالجملة مضى ذلك الزمان ومضت معه البركات . فلما لمح بني الاضجار . بادر بالدخول الى الدار . فدخلت داراً . قد حلت فيها نعمة الله . وجلت في ترتيبها [٣] عن الاشباه . فبادر ينشد ارتجالاً بصوت مطرب ولحظ معرب:

يا مترلاً اصبح الاقبال مبتهجاً في ربعه ضاحكاً عن ثغره الشنب
كم لي بربعك ايام سعدت بها مع كل منفرد بالعلم والادب
وفي يميني امان من نوايبها وفي شمالي من مسولة النوب
ابشر فقد عادت الايام تسحب في ارجآء سعدك ذيل العز والطرب
واليوم قد عاد برج السعد يشرق في سما سعدك نور السعة الشهب

ان رجلك يا اخي لرجل بالبركات مقرونة . وان طلعتك لطلعة ميمونة . وحلّك لهذا المنزل من حيث الزمن القديم . خلواً من كل خل ونديم . ومن كان له قلب يلتفت الى الندما . من بعد الاخوان القدما . أم اي صدر ينشرح الى شرب العقار . بعدما شرحت لك من الاعذار . بل اليوم نستوفي ما افترض منا . [٤] اذ انت اليوم حاضر معنا . وفي غدٍ راحل عنا . ثم قال للتلميذ عجل بالدواة والطرس والاقلام . بعدما تسير بعمل الطعام . وحمل الات المدام . واحمل رقاعي الى اصحابي القسوس . فاليوم يوم مسرة النفوس . فلما حضرت الدواة والطرس . جعلت اتبيّن خطه بالحدس . فلمحت اناملٍ كالثيران المضطرمة . واسطر كالآلا المنتظمة . واحرف كالرياض المبتسمة . فعندما كمل كتابة رقعته . ناولها لبعض صبيته . ثم قال له عجل بها لاعز اخواني . واجل خلاني الراهب القس عبد المسيح . ذي اللسان الفصيح . واللحن المليح . فبادرت الى قراءة الرقعة قبل ياخذها الغلام . فوجدت فيها كالولو المنظوم . والوشي المرقوم :

| | |
|---|---|
| اعبد السيد الربّ المسيح | عليّ بذلك الوجه الصبيح |
| فقد[1] غفلت خطوب الدهر عنا | وقد ضمنت الى الصهباء روحي |
| [٥]رقد حضرت رئين نحوى فبادرْ | وروّ جوارحي[2] بدم المسيح |
| فلو كانت حراماً ما أبيحت | لمن يختار شرب دم المسيح |
| ولا داوا [داوى] جا رب البرايا | جرايح[3] ادم المُلقى الجريح |
| ولا اوصا [اوصى] بها المسيح[4] جهاراً [جهرًا] | وحلّل شربها امر الذبيح |
| فان بادرتْ مرت[5] بكل شكر | وحصّلت السرور مع المديح |
| وان اخّرت دعرتنا لمنى[6] | ابا الغدر القبيح ام المليح[7] |

* نقابل بعض القصائد التي ترد في المخطوط مع ما ذكره شيخو في العدد ٥ ( ١٩٠٢ ) من المشرق ص ٤٦٦-٤٦٧ .

١) ش لقد
٢) ش جوانحي
٣) ش بليّة
٤) ش الرسول
٥) ش فزت . وهي برأينا الصحيح
٦) ش لأمر
٧) يذكر شيخو العجز كما يلي : خسرتْ جزاك من صنع المليح . - ويقف هنا من ابيات هذه القصيدة .

ويطمع في الزيارة بعد وقت لتمحوا ما سطرت من القبيح
فعندنا كالمشتدر[1] في سرور وانت سايبا مثل الطريح

فلما وقفت على ابياته العجيبة واعتبرت ما اودعها من المعاني الغريبة . وشاهدت سرعة خاطره الى الارتجال. وما نظم في سرعة الوقت والحال. ناولت الرقعة الى تلميذه بعد ما سبقتها . بل وسارعت في الحال وسطرتها . وعدت اليه قائلًا له : تبا لزمان يقعد بالعلما . وسحقا لدهر يقوم للجهلا . تالله انك لطراز الامة المسيحية. وتاج هذه الطائفة [٦] النصرانية. فما اكمل ادارتك. وما اجمل صفاتك. فجعل يحكي له قلة اكتراثه بالفنون الشعرية . وبعد عهده من الالفاظ الخطابية. قلت وكيف يهمل مثلك هذه الفضايل . وانت هذا الرجل العاقل . قال قد كنت تقدمت بالقول اليك . انني اشرح لوم هذا الرفيق الوغد لديك . اليس انه اذا اعياه العيّا . واقلقه الدا . جعل هذه الفضايل ذنوباً . وهذه المحاسن عيوباً . فتراه اذا شاهد الناس يمدحوني . ويذكرون فنوني ويشكروني . يخاصم وينازع ويقول هولا العلما . قد عرفوا في العلوم . كذا كنت اسمع عن والدي المرحوم . وكان يا اخي والده اكثر الناس جهلًا . واقلهم عقلًا . وانجسهم اصلًا . من جملة الحكايات عنه . انه دخل الى دياره بعض المتمرضين . وقد حضره بعض المتطببين . فوصف له صفة تملك الطبيعة من كثرة القيام . فانقطع ذلك في تلك الايام . فجعل يطلب من ذلك الدوا . كمن له مريض بذلك الدا . فلما ساله من حضر عن العلة[٧] فقال لنا بقرة سودا بهذه . فضحك من حضر على لحيته . وصار نقلهم حكايات خفته . ثم مد يده الى القلم وهو يقول . مضى النهار ونحن في حديث المحارفين[2] . وحكايات المسحين . وسطر رقعة ثانية في الوقت والحال . وناولها تلميذًا اخر . وقال عجل بهذا الى صديقنا القس الفاضل الى الصفا شمعون . واحذر ان يعلم بك الشيطان الملعون . فيتطفل علينا . ويسارع الينا . فيكدر صفو ساعتنا . ويزق ثمل جماعتنا . فهذه عوايده النجسة . وطرايقه الوحشة . فاخذها التلميذ وهم بالخروج في الباب الخان . فاقسم عليه برب الارباب . قايلا له بالطف خطاب . اجعل طريقك على باب الخان . واعط رقعتي هذه للقس سليمان . فلما قرات الرقعة المسطورة . فوجدته قد نظم عقود الاخري كاللالي المنثورة . فاعتبرتها بيتاً فبيتاً

١) كالمخدر . ولا نرى معنى لكلمة النص ٢) المحروم الحظ

سطرًا فسطرًا . فوجدت في الواحدة مكتوباً . من غير لحن ولا عيوباً .

[٨] قل للصديق الفاضل النفس الاجلّ ابي الصفـا
عني مقالة من تفرد بالمودة والاخـا
اذا ترى الصهباء غير القوم تعلن بالندا
صبّرا عبـاد الله غوي طال مكثي في الانا
وسامت ريح القـار في الدن الملتم في الحيا
والشوق يحدني الى القوم الكرام الاصفيـا
قضوا المقام وفرجوا عن كربتي وخدو عطا
تجدوا النهار من الدجيـة والصباح من المسا
وانا الذي لبيتها وطفيت علتها بماء [بما]
واقول انك لي وللصهباء من اهـل الوفا
فاقض الي قيومنا يوم المسرة والرخـا
مع فتية مثل النجوم الزهر في كبد السما
لا تقعدن عن لـذة كل يوول الى الفنـا

وسبرت الاخرى فصادفتها تعرب عن تلخيص عجيب . وتخميس [٩] غريب. ويتلوا ابياتها . نثر كالدر المنثور . والروض الممطور . فنظرت الابيات لوقوع موضعها من قلبي . وحلول حبها في خاطري ولبي وهي شعر :

ايا ابن غدا ذخري لكل ملمة تلمُّ فلا زيد سواه ولا عمرو
علم الى الراح التي كان صافيا لنا دنها من قبل ان يخلق الخمر[1]
وبادر[2] فما اللـذات الا غنيمة[2] فشمر[3] اليها قبل ان ينفـد العمر

فلما انصرف تلميذاه بالوقـاع . ورمي عن كفه الطرس واليراع . جعلت اعجب من سرعة خاطره الذكي . وطيب نشر نظمه الفايح الزكي . ثم قال لو شاهدتني في زمـان مضى . ودهر سلف وانقضى . ابصرت خاطرًا كالقضآ. وفكرًا اشد نفاذًا من جرات القضآ . ولكن مع ما دهمني من قلة الدخل. وضعف الجسم وهذا جميعه عندي سهل . اذا اعتبرت احوالي مع هذا التذل .

١) يذكر شيخو العجز كما يلي : لنـا دون خلق الله في دنها الخُمر . ( الخمر سريانية معناها الدير والكنيسة ) .
٢) يذكر شيخو الصدر كما يلي : فبادر الى راحٍ تجد فيها راحةً .
٣) شَ وشـر .

فوحقك لقد اشغل خاطري . واسهر ناظري . وقسم ضمايري . وهدّني وحطمني واقلقني . [١٠] واسقمني . ومن جملة خزياته انه يتصدى لاوقات تجتمع النسا الى القبور . فيسارع الى هناك من غير فتور. ثم يقف علي قبر قبر فيصلي عليه. ويرفع الى السما يديه . كانه يطلب الرحمة لذلك المدفون . ويطوف على القبور كالمجنون . فمتى عوّل على الانصراف تقدم الى النسا وترحم علي الاسلاف . ثم يقول لا حاجة الي كثرة البكا علي الاموات. فاكرامهم هو بالصلوات. والقوانين والحسابات . وان كان الانسان لا يصبر . والعالم لا يغدر . ثم اذا عرف منهن من لها ميت ينظر اليها ويرسل الدموع مثل السحب . ويقول لقد كان فلانا اجل اصحابي . واعز احبائي . شهدت الله ما قربت قربانًا الا ترحمت عليه . ولا وقفت في هيكل الله الا وذكرته لديه . وبالجملة فهذا هو شغلي وهذا هو عملي . وان كان غيري لا يلتفت الي هذه الامور . ولا يرضى ان يخرج الي القبور . ولا يلوي الا اذا استوت القدور. ويوهم للناس انه حريص علي الصلاة. ويرخص الحسايات [١١] والبراخات . ولو ابصرته ابصرت حمارًا ناهقًا . وتيسًا ناطحًا . فبينما هو يحادثني . ويخبرني احواله مع رفيقه المذكور . الا وقد اقبلت رفقة القسوس مثل البدور . يرفلون في اثواب الهيبة والجمال . ويسحبون ذيول الوقار والجلال . فلما جلسوا بعد سلامهم . جعلوا ينثروا لواؤ كلامهم. ويسالون عن قدومي واسري . وهو يقدم في القدوم بغدري . ويقول رجل غرّ بهذا المكان . وقد اخبرته باحوالنا في هذا الزمان . وهو معول في غدر على الانصراف. فاحببت الاجتماع به على السلاف . فما فيهم الا من شكره على فعله . قايلين ابا الفضل ان يكون الا لاهله . وجعل يورد اليهم حربات رفيقه الملعون . وهم يوافقونه على جميع الفنون . وانا انتظر الطعام . واطيل النظر الى الغلام. فالتفت اليه الراهب عبدالمسيح . قايلا له بالمجون المليح. العلك قد دعوتنا للعب الحاتم . او كانا جالسين في حاتم . ابن البواطي والطاسات . [١٢] وابن الصواني والكاسات . مضي نهارنا في ذكر ذلك الشيطان . دعنا من قبايحه وعجل بابنه الدنان . قال ليس تكرار ذكره من افراط محبته . لكن لما قد نلت من مكره وحيله . فاشغل الله خاطره كما اشغل سرّي . وقسم فكره كما قد قسم فكري ثم التفت الي تلميذه ينشد :

سر[1] ذيولك يا عرا الزنار وعليك عو الدن بالمنقار[2]
فلقد يعجز [x] في راسه من وطية الايام والاعمار[3]
واكشف تجد شمس الضحا محجوبة في جنح ليل القار والفحار[4]
قالوا العقار ولو اضآ لعقولهم مقدارهـا ما سميت بعقار[5]
نور يثوّر العقول ضياوه من علة الاضرا والانوار[6]
سرٌّ اسر به الى اتباعـه نور[7] العقول وكاشف الاسرار
قد قلت لما ابرزت في كاسهـا تمس اللالي باعوا الطلا بنظار[8]
مالوا الى الـدينار قلت عُدمتكم أدمُ المسيح بياع بالدينار
قد كان قبلهم يهوذا بايعًا دمه بتبر التبر للكفّـار

[١٣] عجل يا ولدي بها فوحقّ من تجسّم من الجبلة الادميّة . وقال هـذا دمي لخلاص البريّة . ما تعوضت عنها درهما ولا دينار . ولا اقتنيتها بائعًا ولا خمار . وانما ادخرتها لهار في قدرها . وللخبرا بحقيقة امرها . والذين انكشفت لهم غوامض سرّها . وقد حضر اجلّ اصحابها وذويها . واربابها ومستحقيها . فبادر نحو الدن بالمنقار . وابرزها لي الكاس مثل شهاب النار . فنظر اليهـا القس واشار الى التلميذ بتبر اعتبار . وانشد :

نور بكفك ام شهـاب النار جمرًا[9] تضرم ام نضار جار
شمس الضحا في الكأس ام فجر تبسم ضحكـه من تحت ليل القار
هذي التي مزج المخلّص كاسهـا في يوم عيد الفصح للاطهار
هذي التي حلّت بها اشجارها[10] عن سائر الاشجار والاثمار
كالنور[11] لكن حمرة في خدها من لطم اخمص ارجل العصّار

١) ش اشدد
٢) يذكر شيخو العجز كما يلي : واعجل الى دنّ طلي بالقار .
٣) لا يذكر شيخو هذا البيت بكامله .
٤) يذكر شيخو هذا العجز كما يلي : قدمًا مدى الايام والاعصار .
٥) لم يذكر شيخو هذا البيت .
٦) يذكر شيخو هذا البيت كما يلي :
نورٌ يفوق سناه كل طريفـة من ساطع الاضواء والانوار
٧) ش رب .
٨) يذكر شيخو هذا العجز كما يلي : تمس الذي باع الضيا بنبار
٩) ش جمر . ١٠) ش انوارها ١١) ش صفرا

لما رمت منها الكثيف تمكنت[1] فتلاعبت[2] بلطايف الافكار
وكذا النفوس اذا رمت شرايفا فويت[3] لعلم[4] غوامض الاسرار

[١٤] فلما وقفت الجماعة على ابياته الفاخرة . واعادت النظر في ابتكار معانيها الباهرة . صارت الخواطر في انفاذ خاطره . وسارعت اكف الافكار الى تلطف جواهره . فطفق القس شمعون يقفوا في النثر اثار قوافيه . ويصف خاطره او [x] فلا فيه . قايلا لنا وحق الذي حجب ذاته عن لطايف الافكار . فهو نور الانوار . وسر الاسرار . لو سطرت مقاصد هذه الاشعار . باناامل شرار النار . واقلام شهاب الجبّار . على صفايح الفضّة . والنظار . لاستحق قدرها هذا المقدار . قلت له لقد قعد مدحك عن واجباتها . وعجز شكرك عن مفترضاتها . بل والذي انار العقول والافكار . بما افاض عليها من الخيرات الالهية والانوار . لو سطرت هذه المعاني والاشعار . انامل الفيض السماني والانوار . باقلام الحبر الاهي . ومداد الاسرار . على طروس العقول [١٥] والافكار . لما بلغ قدرها ما يستحق من المقدار . ثم عاد صاحب الدار الى تلميذه قايلا علي بالطاسات . والقناني والكاسات . وأدر الاقداح لتدور معها الافراح . ثم نهض ودخل داره . ونظري يقفوا مواقع اثاره . طمعاً في احضار الطعام . قبل يطوف علينا كاسات المدام . فغاب ساعة طويلة ثم عاد . وليس معه شي من الزاد . وغالب الظن والاعتقاد . انه تناول شي من الزاد . فلما جلس في مكانه . عاد يقول لاصحابه واخوانه . ما ابهى مجالس العلما . وما احلى محادثة الفضلا . سيما اذا طاف كاس المدام . وفي اثره طاس الكلام . وقد جمع الله بين الامرين . والف بين القرينين . فليكن طايف الشراب . يقفوا اثار شافي الخطاب . وعوض السماع الطبيعي . السماع العقلي . ولنجعل نقلنا المحادثة . ومشمومنا المباحثة . فما يسمح الزمان في كل يوم بالمسرات . ولا يتفق [١٦] في كل وقت الاجتماع في الخلوات . ثم انشد في الحال :

---

١) ش تجوهرت
٢) ش وتلاعبت
٣) ش فازت
٤) ش بعلم
٥) النقل هو ما يؤكل كالفستق وما شاكله .

واحلا المسرات ما راحا سماع العلوم ونقل الكلام
فلولا احاديث مع العارفين لما عد لي قط طعم المدام

ثم قال لتلميذه يا بارد اما علمت انني ما ادخرت هذا العقار الا لمثل هذه السادة الاظهار . فالآن نحبس عنان طرف الكؤوس . عن ميدان اكف القسوس . عد الي المراح وادر الراح . ثم وثب واخذ الكاس وسرحها والتفت الى الجلاس . وجعل ينشدهم وهو يسقيها في ضو النهار . وهي في كفه كانها شعلة من النار :

لو لم تك الراح لا شيء جوهرها ولا يعاقلها في اللطف مشروب
ما قال سيدنا والكاس في يده هذا دمي لجلاس الحاق مكوب

ثم دارها على الحاضرين مترعة الكؤوس . وانا اتعلل عن شربها دون القسوس . فقال لي يا اخي ما علمت انك [١٧] حشوة الهموم . وقلب ملوه القلق والغموم . ثم لوى عنقه نحوي . وجعل يحرك راسه قائلاً لي . يا اخي اما طلبك فقد صاب . وسهم قصدك فوالله ما اصاب . اي رزق بقي في القانية . ام اي معيشة تخلفت للمنتهي الي الامور البيعية . والله يا اخي لم يبق لهذه المنزلة حرمة . ولا لاهلها قدر ولا لاصحابها نعمة . ولا لاربابها رزق . ولا لسعادة حاظيها عرق . ذهب زمانها . ومضى اوانها ورثّ بنيانها . وتناقضت اركانها . فله ايامي وانا في هذا المكان وحدي لا قسّ يشاركني . ولا رفيق يباسيني . ولا ضد ينازعني . بل انا الماجد الفاخر . الناهي الامر . الفاضل الفايق . النبيل الرايق . ذو الامر العظيم . والحكم الجسيم والقدر العلي . الشاغل السني . لا امر فوق امري . ولا قدر فوق قدري . اخذ حقوقي كاملة تامة . من الخاصة والعامة . وكان [١٨] حسبي يا اخي بما كان يحصل لي من العادات . والبراخات والقرانين والحسايات . فاما الجنازات فلا تنسها . وكان اقبالها قد هزم عكسها . لقد مر لي بها زمان كان اعذب من زمان الصبى . وهب لي بها نسيم كان اطيب من نسيم الصبى اياماً كنت لا اقع الا بيد العزيز الكبير . ولا الوي الا على الرئيس القدير . والموت يركض خلف الناس ركضاً . والجنايز تتلوا بعضها بعضاً . وانا في غبطة عذبة اليفوع . ولذة باسقة الفروع . ومسرة غدقة الهطول . وبهجة مستطرة الذيول . لا اتجز من دفن هذا . الا وقد مات هذا .

ولا اخبار بالجنازات في بعض الاسواق . الا والصراخ على غيرهـا من سـاير الافاق . اظل نهـاري ادفن الاموات بحضر من الجمع . وكم من مرة دهمني الليل . فدفنت اناساً على [×] . فلو شاهدت يا اخي تلـك الايام الغر . وحضرت تلك المواقف [١٩] . . . . . ( هنـا وقعت بعض الصفحات من الكتاب ) الى تلميذه قايلاً . اتني بالطعام عاجلاً . وعاد الى اصحابه يقول . اي الذنوب عند الله اشر . ام اي الخطيات اقتل واضر . اقول ان الشره اردي الزلات . واقبح الجهالات . وقد بان وظهر . وعرف واشتهر . ان الشره قتل آدم ابو البشر . وهو كان سبباً لهلاك الذرية الادمية . والجبلة البشرية . ولو احتفظ ادم بالوصيّة . خلد هو وذريته في الجنان الروحانيّة لكن قتله الشره وحب التمرد . ونسي الوصية ودنا الى الشجرة . اكل فهبط . وشره فسقط . ثم لزمت خطيته ذريته : وواصلت زلته جبلته . ثم ان جميع هـذه الفواحش والخطيات . وساير هذه الاثام والزلات . ظهرت من اصل هذه الشجرة المرة . فاثمرت الثمرات القتالة المضرة . قلت له اذا كان الاكل عنـدك اقبح الخطيات . فلا شك ان الجوع علي رايك اجلّ الحسنات . وانشدته على سبيل المداعبة . وان كان باطن الخطاب ضرباً من المعاتبة .

[ ٢٠ ] شعر

اذا كان جهلي رفعتي ومحاسني لديكم وفضلي زلتي وذنوبي
فلا واصلتني رفعة ومحاسن ولا فـاصلتني زلتي وعيوبي

اجابني قايلاً ١٠١ انت فقد زغت عن منهاج قصدي . واما انا فقد عرفت شر جدي . هكذا ابداً نظن في تضحية الخيانة . وفي هتكة غيري الصيانة . اتري قبيح ما ذكرت عن الشره . وما يصدر عنه . وما يحدث من المضرات ومـا يوجد منه . يعز علي فقد الزمان من العلما . وصفر اكف الايام من المعلمين النجبا . ابن انتم مما شرحوه من شهوة البطن . والفصول التي اوضحوها في هذا الفن . وانما قد غلبت على نفوسنا الشهوات البهيميّة . وقهرتنـا الاهوية الرديّة . حتى صاوت الجهالات عندنا كالحسنات . والخطيـات كالخيرات . ولو انا نظرنا الى انفسنا بالعين الحقيّة . ووزنا امورنا بالميزان العدلية . علمنـا ان الانسان لم يخلق لمجرد المشاوب والمآكل . لكن لتعليم العلوم والفضايل . ونحن قد شغلنا الاهتمام

بنا [٢١] يوكل عنا يعلم وبنا يشرب عنا يفهم . ان هـذا المرض الاعظم. ثم وثب هو يترنم :

ار دابنا الشره المردي وقد عقلت عقولنا عن ردا (ردى) سبل المضرات
ولو عقلنا علمنا ما نفود لنـا من المضرة في حيل الخطيـات
تدعوا لاجسامنا الفضلات عديمة الامراض من كون اسباب العقوبات
ولنفوس مع الايام ما رفعت تلك العقوبات من هدي التجارات

فما نجز الابيات الا وقد اقبل الغلام . وعلى يده اول الطعام . فاحضر لدينا من البوارد اغرابها . ومن الحوامض اعجبها . ومن السوادج اعذبهـا . ومن الحلوي اطيبها . ثم قدم خروفاً الطف من سرابه . واسمن من احبابـه . نشر العود ينفح من رائحته . وطيب العوافي يلمح من جودابته . فلما رآني اطيـل النظر الي الزبادي القاشانية . والصحون الصينية [ ٢٢ ] والالوان الغريبـة . والاواني العجيبة . ثم اعيد المحاتي في الكاسات والقناني . والبواطي والصواني. قال مشيراً نحوي بالخطاب يا اخي هذه ثمرات تلك الشجرات الفاخرة . وهذه الانوار من تحس تلك الاوقات الزاهرة . هذا الصحن الصيني من تركة فلان. حمله الي علامة ليلة القربان . وهذا الزبادي الصغرى . المجرية بالتبري . انتقلت الي من بيوت المحتشمين . الروسا المتصرفين والظرفا المتخصصين . ايام تقلبهم الله من هذه الدار الفانية . الى الدار المخلدة الباقية . فاما الفراغات القاشاني . والاقداح والقناني . فلهذا اسباب طريفه . وحكايات ظريفة . كان اذا مات بعض الكبرا . او سلف احد من الروسا . من افراط حزن زوجتـه . يهم بكسر اقداحه وانيته . فيقول لهـا من حضر تكون له هذه الانية تذكار وقربان . ولا تصير من حظ الشيطان . فكانت تحملها الي وتحضر جميعهـا لدي [ ٢٣ ] وتتقل باخذها علي . وتطلب مني في مقابلة ذلـك التذكار في الصلوات . والدعا لمن سلف ومات. فان سلفت بعض النسا لمثل هولا الروسا . كلما دخل الرجل فابصر منازلها واعاد النظر فيما قلبت انامليها . ثم يلتفت الي الفراغات التي تغسلها . وترفعها وتنقلها . امطرت عيناه بالعبرات . وبادر فؤاده الى الزفرات . وتقلقل قلبه تلق الحسرات . فيقول لغلامه لا قلبت لي ابصر هذه الصحون والزبادي. ولا يوافقني ضميري ان اعطيها للمنادي . اولا ليلا يقرح بيعها

صميم فوادي . وثانيا لاجل شهامة الاعـادي . وثالثاً لما كان نصاحبتها علي من الايادي . فبحنانى عليك اما حملتها الي قسس بيعتنا . ومقدم شريعتنا . ليذكر المرحومة في صلواته . ويترحم عليها في قداساته . فتحمل اليّ في الحال . من غير اغفال ولا مطال . فوت الرجال كان يقود إلى الات المدام . وموت النسا كان يحرك لدي فراغات الطعام . [ ٢٤ ] هـذا سوى الملابس والثياب . التي كنت احق بها من التراب . واما هذا الخروف وجودابته وهذه اللبنية . واللحم اللطيف الذي في الساقية والبورانية . والطيور المشوية والمقلية . فلهـا الحكايات الغريبة السنية . اعلم انه كانت لي نعجة صغيرة في السن . عجيبة في السمن . سلمتها في العام الماضي . الي راعي اغنام القاضي . وكان في الغنم كبش كبير . للولي الاجل الوزير . انعم به عليه الامير . وكان هـذا الكبش من اغنام العرب . يجر طرفه مثل الذنب . الا انه كان بديعاً في صورته . يرهب الكباش من هيئته . وكانت هذه النعجة لا كردية . ولا تركمانيـة . لكن مجنسة من الجنسين . كالفرع الظاهر من اصلين . فعـادت اليّ في بعض الايام وهي من الكبش عشار . فاحتفظت بها احتفـاظ المفلس بالدينار . وجعلت اطعمها الشعير المغسول الاسود . واسقيها الما العذب المبرد . الى ان ولدت هذا الخروف [ ٢٥ ] الموسد . وفطنته من الجنس الاعرابي . واعتداله من الاصل الكردي . وسمنته من التركماني . ولقد ظلّ هو وامـه طول الصيف يا كلان الحب . ويشربان الما المبرد العذب . فلما فـاق حسنهما . وظهر سمنهما . الي ان كاد يسيل دهنهما . اتفق هذا اليوم المبارك . الذي ليس له في الايام من مشارك حصّلت من راس الخروف الكوارع ولبن النعجة امور اللبنية . ومن الخروف مثل هذه الشويه . ومن النعجة السمينة [ × ] . هذه الالوان العجيبـة : والطبايخ الغريبة . واما الطيور فمن انعام المولي الكبير . الصاحب الكامـل الوزير . نفد بعضها امس بعد العصري . وبعضيـا اليوم من الفجري . وبالجملة فقد يحصل لنا ما نريد من المراد . فقم يا اخي وبارك على الزاد . فما خرجت الكلمة من بين شفتيه . حتى دنوت الى الطعام وصليت عليه . فلما اكلنا يسيرًا من البقل . وهو يمدح حموضه الخل . الا وقد تذكر القرعة . [ ٢٦ ] انه يوم الجمعة . فوثب يخبط كف على كف . كمن اقبل على امر مهول او جذف .

ويقول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ويعوذ بالله من هذا الامر الشنيع والخطب الجسيم . اي شي اهلك شعب اسرايل . الا اعمالهم حقيقة الشرع وميلهم الى الاباطيل . يا اخوتي هبوا اني انا مستقل السر مقسم الفكر من اسباب كثيرة . كيف تغافلتم انتم عن هذه المعضلة الكبيرة . او ما علمتم ان يوم الجمعة من اشرف الايام . وان اكل الدسم فيه حرام . وكيف لا نندب نفوسنا ونحن من جماعة القدوس . ومنا يعلم حقايق الناموس . ويفقل عما يكون الناموس . ونغفل عمما يكون فيه هلاك النفوس . ارفع باعلام هذا الطعام ولا تدع سوى البقل . ومعه جميع الخل . فمتى غربت الشمس عند العشاء . اتحفنا بهذا الغداء . فوحقك من حيث كنت صبياً وغلاماً . ما رفعت لثاماً وما حللت حراماً . فما خرجت الكلمة من فيه . الا وقد رفع الطعام عن بكرة ابيه . [ ٢٧ ] فعمدت استعمل من البقل والخل . وجعلته من الباقي في اوسع حل . وتاقت نفسي الى ارتشاق انبه العنب . فلما سددت جوعتي . وشغلت بذلك الغدا معدتي . جعل يطيل النظر اليّ . قايلا كانه يشفق عليّ . ما هذه النية لمن له ارب اللبنية . ولا هذه الطوية . لمن بقي له غرض في الشرية . ثم انه التفت اليّ الغلام . وقال حيث الان قد استغنينا أدر كوس المدام . بحيث يطوف ايضا اقداح الكلام فطفق الي الكاسات فاترعها بالعقار . وكان بها على الجماعة يحكي الجمار . فلما وصل اليّ احضرها لدي . ثم انشدني بصوت جامع الاطراب . ولفظ جاري الاعراب :

خذها مكللة در معطرة محمرة الخد فيها المسك مفتوت
كانما الماء اضحى جامدا درراً وهاك في يونق البلور ياقوت .

فلما اخذتها وتناولتها كاس بعد كاس . التفت الي الجلاس . قايلا للراهب عبد المسيح . لقد كاس صاحبنا طرزك بفنون المديح . ونسبك الي اللسان الفصيح . واللحن المليح . فاخبرني اي العلوم [ ٢٨ ] البيعية عرفت . ام اي الفنون الشرعية سعفت . واي ضروبها اتقنت . ام اي فنونها حققت . قال انني من حيث الزمن القديم . ومن ايام التعليم . ما ارتاحت نفسي الا الي الالحان . فاتقنتها غاية الاتقان . وبالجملة من حيث اول الزمان . ما جال جواد همتي في غير هذا الميدان . قلت له لقد ارتحت الي اجلّ الصنايع . وتاقت نفسك الى افخر البضايع . واشغلت نفسك بالعلوم الموسيقية . واهلتها للصناعة الارغنية .

فتراك ان سالت عن بعض علوم هذه الصناعة . او طلبت باظهار هذ البضاعة. انت قادر على الخطاب . ام عندك لما اقول جواب . قال اجل والذي جعل الاذان . ابواباً للالحان . لست بعاجز عن جميع اصنافهـا . واني لقايم بسائر اوزانها واوصافها. فسل لا بل جواد لسانك. وقل لا قلّ مداد ثيابك قلت بل وانت تظن انني اسيلك عن الفرق بين الالحان. فيقول اعرف ذلك من الحركات والاوزان . او تقول انني اسلك من كان المرتب [ ٢٩ ] للالحان من اوّل الزمان . فتنسب ذلك الى الحكماء . القدما . او الفلاسفة النجبا . اهل العلوم الرياضية . والخبرا بالصناعة الموسيقية. فلا تظن انني اسيلك عن الاقاويل كيف كنه ترتيبها . ولا عن طرايقها واستخراجها وضروبهـا . فتقول ان المعلمين القدما والملافنة الفضلا . نقلوا البعض عن الالحان اليونانية . ورتبوا البعض على وفق الاصول الموسيقية . واما سوالي عن اصول صناعة الالحان . واريد منك اقامة الدليل والبرهان . وقد اعددت لك خمس مسايل . وازفهـا لك في افخر الفلايل . فان كنت عارفاً باصولها . سالتك عن كنه محصولها . قال سل فاني مجيب عن سوالك . وقل فها ها هنا من يقعد عن جواب مقالك . قلت اخبرني يا من عرف الالحان وخبر حركاتها . وعلم ميزاتها وسبر كسراتها. لم كانت الالحان ثمانية في العدد . لم تنقص ولم تزد . الثانية ثم بيّن لي لم كانت الاربعة منها . تشابه الاربعة. ولا تعدل عنها . [٣٠] الثالثة ثم عرفني اهلٌ لها امزجة طبيعيّة. ام هي امور عرضية. الرابعة ثم اكشف لي اسرار امزجتها. وتضادد فعلها وقوّتها . الخامسة فصل لدى المطرب منها والمحزن . والمشجع فيها والمذلل . اجابني والتبسم ظاهر من ثغره . والتعجب لايح من سره وجهره . لا والذي خلق الالحان . ورتب لها الكسرات والاوزان. ما قرعت اذني هذه الكلمات. ولا خطرت لي هذه اللفظات . ولكن سالني عن كسرات الزمارات. وتصحيح نهايات الهلالات. وتحرير المعانيت على اصلاح المقالة الزهاوية . وتلاوة القوانين اليونانية . على موافقة النهاية المطلبة . فانني اورد ذلك لديك بصوت يخجل عند حركاته الارغن . ويفتن لشجوه الشجي المفتن . قلت يا اخوتي اما رسوم العلوم البيعية فقد درست . واما السن الفنون الشرعيـة فقد درست . اقلت والله اغمارها . وخفت اسرارها . واقست انوارها . رما بقي لنـا من شروط

[ ٣١ ] الالحان الموسيقية . واصول الترتيلات البيعية . سوى اجتناب الملوحات والحموضات . خوفاً من تحشين الحلق وكانها هي المفروضات . واستعمال الصمغ العربي والنباب لتقطيع البلغم . شرك لصيد السمجد والطلغم . والعناية بتعليم عطر مرعشي . او بيت ملطي . او زمار رهاوي . او هلال مشرقي . والتصدي لوقت من اوقات الاعياد . وترقب احد المواقف والاحاد . فان كان يا اخوتي من ذوي الحماقة . وارباب الجهل والبراقة . فاسمعوا طريقته . وافهموا قبح سيرته . تراه يدخل الى البيعة وانفه على كتفه . وينظر الى قدامه وخلفه . ويتايل يميناً وشمالاً . ويتيه اعظاماً واجلالاً . ويضحك من مقاله هذا . ويبتسم من لحن هذا . حتى كان واضع الموسيقى . او كانه ارغن لكل لحن حقيقي . فاذا تقدم الى رفقته . جعل يعبر يده على لحيته . وينكس عمامته على جبهته . ثم يطيل النظر الى الكتاب . ويطرق [ ٣٢ ] ويرفع راسه ويسهل ويبصق . ويقول هذا البلغم قد قتلني . وسد حلقي وامرضني . حتى اذا ميّل راسه . ورفع صوته وضاقت انفاسه . رفع صوته واعاد الكسرات . ورجع لحنه وحرك النهايات . فان كانت زوجته تنظر اليه . واتباعة تثني عليه . فمن شمعون الصفا في رياسته . ومن فولوس في بلاغته . ومن باسيليوس في دقايقه . ومن يوحنا فم الذهب في حقايقه . ولو سالته بعد ذلك عن معنى كسرة من الكسرات . او عن حركة من الحركات . او عن حقيقة نهاية من تلك النهايات . نسب السؤال الى الهذيان . واعتقد في الكلام غاية الزور والبهتان . اجابني صدقت والذي تعظم عن المواد . وجل ان يدخل تحت الاعداد . لقد عرفت طريقة الجهلا من هذه البيعة . وسبرت لسري احوال هذه السريعة . ولست من الذين ينفرون عن الحق . ولا ممن لا يفرق بين الكذب والصدق . ولقد اضرمت في قلبي ناراً لا خمود [ ٣٣ ] لشهابها ولا لبرد حرارة التهابها . وازعجتني بسالكك الباهرة . ومقاصدك الفاخرة . فان كان عندك لها تاويل . فاغتنم الشكر المريض الطويل . وانعم بكشف اسرارها . لنستضي بمصابيح انوارها . وسهل وعور اشجارها لينتفع بقطف اثمارها . قلت ان كنت لذلك اهلاً . فلن ترى عندي بخلا . لان الزماد لا يفيد على الاطلاق . اذا لم يكن الاستعداد في الحراق . قال قد اهلت نفسي لما اشرت . واعددت خاطري لما ذكرت .

انعمت بما وعدت واعدت عليك فصول مسايلك. والتقطت حينئذ درر فضايلك. قلت سل عما بدا لك . وخذ الجواب عن سوالك . قال اقسم عليك بالعلة الاولى . ما كشفت لي سر المسلة الاولى . لم كانت الالحان ثمانية في العدد . لم تنقص عن ذلك ولم تزد . قلت اسمع لا تثقل سمعك . ولا هطل دمعك . لما كانت القوة السمعية من جملة الحواس الجسمانية . وكان جميع ما يرد على الحواس . مما يوكل ويشرب ويشم ويبصر [ ٣٤ ] ويلمس لجميع الناس . له امزجة ثمينة وكانت الامزجة ثمانية وجب ان تكون الالحان ثمينة . بحيث لا ينقص حظ الحس السمعي عن حظ اصحابه بل يصدر اليه من الكيفيات ما هو احرى به فوردت عليه الالحان الثمينة. ذات الامزجة الثمينة . فلهذا المعنى لم ترد الالحان عن الثمينة . ولم تنقص منها . كما لم تنقص الامزجة الثمانية الواردة عن الحواس ولم ترد عنها . قال قد درك فما افخر درك . فبحق العلة الثانية الا اظهرت لي معاني المسيلة الثانية . لم كانت الاربعة من الالحان تمازج الاربعة في سايز الحركات والاوزان . قلت اسمع لا ظل علمك . ولا اعتل فهمك . ان الكيفيات الواردة على الحواس . اذا اعتبرت بالبرهان والقياس. لا يمكن ان يوجد على وجه الانبساط والانفراد . اهل ثمانيتها تعود الي الاربعة في تركيب امزجتها وفي الاعداد . مثل قولنا ان الحار لا يوجد الا وفيه اما يبس واما رطوبة . ولا الاول الا ويمتزج معه الخامس ليظهر تركيبه . [ ٣٥ ] ويعتبر ذلك ايضا من الاربعة اخلاط . وكونها لا توجد امزجتها على وجه الانفراد . والانبساط بل منها حار فيه الرطوبة . وحار فيه اليبس . وبارد فيه الرطوبة . وبارد فيه اليبس . وهي اربعة اذا اعتبرت عند تركيب امزجتها . كذلك الالحان الثانية عند تركيب اربعتها . فالاول يمتزج بالخامس . والثاني يقترن بالسادس . والثالث يشابه السابع . والثامن يوافق الرابع . ولهذا كانت الاربعة . من الالحان يمازج الاربعة . في سايز الحركات والاوزان . قال لقد ارويت بسحب الفاظك غلتي . وسقيت بادوية معانيك علتي. فبحق الصفة الذاتية الثالثة الا بينت لي معاني المسلة الثالثة . هل لها امزجة طبيعية . ام هي اعراض عرضية . قلت اما الالحان الثانية المحررة الحقيقية . فلها امزجة طبيعية . وهي ترد علي القوة السمعية . بمنزلة ما يرد مما يوكل ويشرب على القوة الذوقية .

وكما ان الناس لاختلاف امزجتهم . تختلف لذات شهواتهم فيما يلتذون مما يأكلون [ ٣٦ ] ويشربون . كذلك تختلف لذاتهم في معني الالحان . وسوف يظهر ذلك مما ياتي من الكلام بالدليل والبرهان . قال لقد هيجت اشواقي الي استفهام معانيك النافعة . فبحقك الا اظهرت لي غوامض المسئلة الرابعة. كيف ترتيب امزجتها وتضادد فعلها وقوتها . قلت يا اخي ليس الالحان. مما يلتمس. فتعتبر باللمس . ولا مما يذاق فتعتبر بالذوق . ولكن لما كانت القوة السمعية الطف الحواس الجسمانية . كان ما يرد عليها من الكيفيات الطف من المأكولات. والمشروبات . وكان في الالحان قوي طبيعية . وحركات لطيفة حسية . يظهر فعلها في الامزجة البشرية . عند ورودها على القوة السمعية . فيعتبر امزجتها من الحانها واوزانها ونغماتها . وحركاتها . ولذعهـا وحلاوتها . وحزنها وكآبتها . وطيبها وحدتها . وغلظها ورخامتها . وثقلها وخشونتها . وانني اوضح لديك تفصيل امزجتها عند تركيبها . واغنيك [ ٣٧ ] عن طول الكلام علي بساطتها بحسن ترتيبها . اعلم ان الاول والخامس . مزاجها حار رطب لان فيها لدغا واطراباً وحدة تدل علي الحرارة . وحركة رطبة لذيذة تدل على الرطوبة ... والثاني والسادس مزاجها بارد رطب لان فيها حركة ثقلة رخمة تدل على البرودة. وحركة لطيفة لذيذة تدل على الرطوبة . والثالث والسابع مزاجها حار يابس لان فيها حركة لذاعة كيبة تدل علي الحرارة وحركة محزنة حادة تدل على اليبس ... والرابع والثامن مزاجها يابس لان فيها حركة غليظة رخمة تدل على البرودة وحركة ثقيلة خسة تدل على اليبس . وتظهر قوى هذه الامزجة في امزجة الناس . فيعتبر ذلك بالقياس . ففي الناس من يستلذ من الالحان الاول. ومنهم الثاني ومنهم الخامس ومنهم السادس . مثل ما فيهم من يستلذ الخل . ومنهم الحامض . ومنهم الدسم وفيه المالح . وذلك لاختلاف الامزجة البشرية . [ ٣٨ ] واختلاف ما يرد عليها من قوي الكيفيات الطبيعية . فالذي تكون المرّة الصفرا غالبة عليه . فالحامض من المآكل لذيذة عنده . ولديه الثاني والسادس من الالحان . فقد اظهرت لك فيها طريق البرهان . فاعرف الباقي بهذا الميزان . وقد عرفتك المعنى على وجه الاختصار . فقس عليه بغير اصحار . وسوف اشكل ذلك لديك واشجره . واجليه في تصويره واظاهره) . قال كل

لي المسئلة الخامسة وعد الي تصويره. وتم سوال هذا الفصل وارجع الى تشجيره. اي الالحان المطرب وايها المحزن . وام هو المسجع وايها المدلل . قلت اعلم ان المعلمين النجبا . والملافنة الفضلا . ما رتبوا الالحان عبثاً وجهلاً . لكن علما وفضلاً . فجعلوا لكل عيد من الاعياد ما يليق بذلك العيد على الانفراد . ورتبوا لكل وقت من الاوقات . ما يحسن بذلك الوقت من الالحان والنغمات. فاما المطرب من الالحان فهو الاول . وينضاف اليه الخامس بغير بهتان [ ٣٩ ] فلذلك كانا في اعياد الافراح . فاعتبر ذلك من غير اقتراح. وان شئت أظهرت لك ما تطلبه . بحيث تعرف حقيقته وتفهمه . الا تعلم ان الاول وضع في العيدين الفاخرين . والموقتين الطاهرين . عيد الولادة المسيحيّة . عندما بشرت الملايكة بخلاص الجبلة الادميّة . وعيد القيامة الالهيّة . حيث كان سبب قتل الموت والخطية . وقد علمت ان لا فرح يشبه هذين العيدين . ولا بهجة تماثل هذين الموقفين . والخامس كان في يوم اصعاد المخلص الى السماء . واعاد الجبلة الادمية الى المنزلة القديمة العليا . واما المحزن وهو الثالث . ويقترن اليه السابع . ولذلك كانا في اكثر الامر في الجنازات . والاجدر بهما دفن الاموات . واما المشجع فالرابع ورفيقه الثامن . وقد تجد ذلك في اكثر الامر لجهاد الشهدا . ومعاناتهم اكثر الشدة والبلا . بحيث يتشجع السامعون الى ما يسمعون [ ٤٠ ] ولا يفعل الخوف فيهم فيذلون . واما المذلل فهو الثاني وينضاف اليه السادس فلذلك وضعا في وقت الذلة والتواضع والآلام . اعني الاسبوع الذي تالم فيه المخلص عوضاً عن الانام . فان انت قست ما شرحت لك حصّلت الفوايد والفضايل . وهذه غاية الخمس مسايل . اجابني قليلاً والبشر لايبح من ابتسامه . والدرينير من اظلاف كلامه . جابت والله الافهام . وبهرت الافكار والاوهام . ولقد اعددت لاهل البيعة نعم الفوايد . ونبهت علينا من مسايلك نعم الفرايد . فحيث الان قد انعمت بما علمت . وتفضلت بما فهمت . فلا تتحلن كما وعدت بالتصوير . واظهار فنون المسايل في التشجير . قلت اجل والذي يخلص صاحب الدار . من رفيقه المنافق المكّار . سوف اصور ذلك على سبيل الاختصار . واعود الى تناول كاسات العقار . فاخذت القلم والطرس في الحال [ ٤١ ] فلما ابصرت الجماعة . ما ادعت المسايل من هذه الصناعة . عادوا النظر في استفهامها . وعرفوا

مقاصدها من تشجيرها ونظامها . طفق صاحب الدار وفي يده كاس العقار . وهو يقول ايها السادة الاحبار . والقسان الاطهار . بالله ان يومنا هذا ليوم عظيم . وان وقتنا لوقت كريم . وقد جملنا الله بهذا القس الكامل . وفايدة ما اورده لدينا من هذه المسايل . وما شرح لي تاويلها من الدلايل . ولكن كلما تذكرت هذه المسرة . وفكرت في انصرافه في غد من بكره . تقلقني لرحيله الوحشة . كما دهمتني عند قدومه الدهشة . فيا ليته وهبنا نفسه ولو يوم واحد في كل ملته سنين . في حياة من هولا السادة الحاضرين . لكن عند الحقيقة ما [×] اذقة ماردين . ثم التفت الي تلميذه قايلًا يا ولدي متى يعود هذا المحتشم الى ديارنا . ومتى يرجع يأمّ فنا دارنا . وقد تكاملت لنا اليوم [ ٤٢ ] الافراح باستماع هذه المسايل الملاح . فادر علينا الارطال والاقداح . فقد ازف ان يزف الينا كروس الراح . ثم تحياتي عليك حيث الان قد اطربتنا لمسايل الالحان. فلا تخرج بنا عن الركض في الميدان . وانشد لي الابيات التي اقترح عليّ عملها المولى الوزير في دير سهلان الكبير . ونحن يومينذ نسحب فيه ذيل السرور العريض الطويل . في دعوة الاب البطريرك ابنا ميخايل . فما يليق بحاسنا الاغاني . ولا اصوات المثالث والمثاني . فوثب التلميذ قايمًا على قدميه ينشد . بصوت تخجل منه حركاته كبرات ابن معيد . شعر :

أمط عن سناها الختم طال بها العمر ... فما صانها الا لارباحها الدهر
وقد جاءها[1] يا راهب الدير خاطبًا ... لها راغبًا فيها وان كبر[2] المهرُ
فقال أبن لي[3] المهر تبرًا فانما ... لترجع صفر الكف ان ظهر الصُفرُ
فقلت ادر[4] قم المنار مبادرًا ... فكيل لنا تبرًا وكيل لنا خمرُ[5]

---

١) ش جنتك
٢) ش كثر
٣) ش ازيد
٤) ش إذن
٥) يذكر شيخو العجز هكذا :

أكيلُ لكم تبرًا يُكيّلُ لنا خمر

ولا يذكر شيخو الثلاثة الابيات التالية

فقال بياع الوقت لا الخمر خمرنا فقد زالت قد صار يشبهها التبرُ
[٣٣] وقد ختام الدن والليل مظلم فبان لنا فجر وما انبلج الفجرُ
وابرزها دوماً من التبر سائلاً يلوح على حافات كاساتها درُّ
فقلت[١] له خبّر حقيقة اصلها[٢] فقد بان لي من سر انوارها الخبرُ[٣]
فقال هي الراح المسيحية التي جلا امرها[٤] شرباً كما اشتهر الامرُ
تناولها شمعون[٥] ثم تداولت بمر بها عصر ويدركها عصرُ
الى ان وجدنا في المذابح من سنا تجوهرها سرًّا فبان لنا السرُّ
وكان[٦] لها خدر الدنان فاصبحت براحتنا تجلى وكاساتها الخدرُ
اذا اترعت في كاسها وتشعشعت[٧] يخال بها جمرًا[٨] وليس بها جمرُ
مشعشعة يزري[٩] على الشمس نورها كان سناها في جبينك يا بدرُ
معطرة اعطافها فكانما م اعير لها من طيب اعطافك النشرُ[١٠]

فلما انشد الابيات واوردها . وخرج يغيّرها بعد ما انشدها . طربت لحسن ايراده المعرى من اللحن . وعجبت من الالفاظ والمعاني واللحن . وجعل كلّ منا يرا كفه بغير كاس من العين . وتناولنا الكاسات . ودارت علينا

١) ش وقلت
٢) ش امرها
٣) ش خبرُ
٤) ش يذكر العجز كما يلي :
جلا امرها ربيّ كما اشتهر الامرُ
٥) ش سمعان
٦) ش فكان
٧) ش وتلألأت
٨) ش جمرٌ
٩) ش يزهو
١٠) ش يذكر هذا العجز كما يلي :
استعيرُ لها من جنّة العدن النشرُ

في هذه القصيدة يذكر شيخو بعض الابيات قبل غيرها . يذكر الثلاث الابيات الاخيرة قبل الثلاثة التي تسبقها .

يذكر شيخو في آخر هذه المخمريات النصرانية بيتين يأتي ذكرهما في المخطوط ص ١٤

هذي هي الراحُ لا شيءٌ يجوهرها ولا يغالبها باللُطف مشروبُ
قد قال سيّدنا والكأس في يده هذا دمي خلاص الخلق مسكوبُ

[ ٤٤ ] الطاسات . واخذنا حظنا يومنا من المسرات . والجماعات تتذكر الحكايات . فالتفت الشيخ صاحب الدار الي الجماعة قايلًا يا اخوتي ما اشبه هذا اليوم السعيد . بذلك الدهر الحميد . وما اشبه فرحاته بتلك الفرحات . وبهجته بتلك البهجات . ايام كان يتزاحم على بابي ارباب الامرات . ولا يصلون الي الا بالشفاعات . واقسم ما تجرعت كاساً طيباً من ذلك الزمان . ولا اعذوذب لي عيش رغد من حيث ذلك الاوان . الا هذا اليوم الشريف بحضور هذا الاخ اللطيف . واقول ان رجله تكون علي رجل مبمونة . وبكفه والموت والوخم مقرونة . فهذه علامات الفرحات ظاهرة . من هذا اليوم بهذه الدلايل الفاخرة . فاسعدوني بالدعا يا اخوتي . وارنوا لتعيري وشقوتي . هذا ان تخلصت من هذا الرفيق الملعون . فقد اورثني فعله اسباب الجنون . ولكن ان عادت تمر بارضنا سحابة من تلك السحايب الساكبات . فنسحب فيها ذيول عاداتها الهاطلات . اروت غلة فوادي الظمان . [ ٤٥ ] وشفيت غلة قلبي ودفنت ذلك الشيطان . فالكساد اذا عم قتل . والنفاق يردي الجميع اذا هطل . ثم اعاد نحوي النظر . وانشد وهو يتحسر :

لان عادت الايام والشمل جامع ... ورغت غليلي من كووس سلافها
لقبت المطايا ساجدًا بحمولها ... وقبلت اجلالا مكان خفافها

فلما اعتبرت غزارة علمه . وسعت اجلاله وفهمه . ونظرت في خزانة نظمه . ثم شاهدت حسراته . وعاينت زفراته . وما هو عليه من الاسف . على زمانه الذي سلف . وشوقه الى موت العالم . شوق النوايح الى المأتم . قلت له فله درك فما احلا ثمرات لبك . وما امر حسرات قلبك . ولقد سباني نظمك ونثرك . ودهاني شانك وامرك . ولكن لا يليق تذكار الترحات . في اوقات الفرحات . ولا الحسرات على الامرات . في ساعات اللذات والخلوات . ويومنا هذا يوم المسرة والمحادثة . واغتنام الفرصة مع هذه الجماعة الحاضرة والمباحثة . وبالجملة [ ٤٦ ] فلعن الله الفوايد من موت البشر . ولو حصل منه الالى والدرر . قال قد جرت عادة [ × ] ان تلوم المغرم العاتي . ولو قاسا ما يقاسي وعانا ما يعاني . اقصر عن عذلي وملامتي . وأرثي لعنائي وشقوتي . ولو انصفت يا اخي لحملت امري على المثل الشارد . مصايب قوم عند قوم فوايد .

وبالجملة فعودوا انتم الي المحادثة . وما انتم بصدده من المباحثة . ودعوني انا اعالج الرجا والامال . وبالله المستعان علي كل حال . فعدت انا قايلًا للقس سليمان . مضى ما مضى لنا في مسايل الالحان . ولقد كنت انت المشكور من الجماعة . بالبلاغة والكفاية والبراعة . فتراك اي شي حصلت من علوم البيعة . ام باي فن اشتغلت من فنون الشريعة . فبادر صاحب الدار الى الخطاب . قبل ان يعيد القس الجواب . عجباً لك ايها الاخ الفاضل . والقس الماجد الكامل . وانت اخص من هذه الملة المسيحية . واجل الابنا لهذه الطائفة السليحية . [ ٢٧ ] وقد سافرت الاقطار . وعاشرت العلما الاخيار . وتجهل مثل هذا القس الربان سليمن . وقد سارت بمواعظه الركبان . وامتلت بخطاباته البلدان . هذا واعظ بيعتنا . وخطيب شريعتنا . فلما اخجلني بهذا العتاب . عدت اعتذر الى القس باللطف الخطاب . قايلا له يا ايها الاخ الصالح . لقد سرني فيك هذا الشكر الفايح . وعطر فكري هذا الثنا العطر الروايح . ولقد كنت مشتاقاً الى مثلك من الخطبا . شوق الظمان الي زلال الما . وحيث الان قد يسّر الله عسير الرجا . وحضر الدوا . فاخلب العقول بمواعظك الفاخرة . واطرب النفوس بخطاباتك الباهرة . واجل علينا بعض عرايس خطبك الوعظية . لنتزه في محاسنها البصاير الفكرية . فافطن الناس من ذكر المرض عند صحته . وعبد مرارة الادوية عند حلاوة عافيته . واسعد الناس من اتعظ في وقت فرحته . وتذكر غصص الموت في حال طيب مسرته . [ ٢٨ ] اجابني قايلًا لله در السادة المطلين . والملافنة الاولين . فلقد صنّفوا من الخطب الوعظيات . من المواعظ ما قطعوا به حبال الخطيات . فان شيت احضرت لديك بعض تماليمهم . واوردت عليك بعض تراجيمهم . قلت له بكأني غريب من كتب القوم . حتى تتحفني بها اليوم . امن انت من المثل المشهور العام ليس بعلم علم لا يدخل مع صاحبه الحمام . الا تعلم ان العالم درعه علمه . وجواده فهمه . وسنانه لسانه . وسيفه بنانه . وضربه جوابه . وطعنه خطابه . والعلما اقرانه . وقهره برهانه . ومثل هذا الموقف ميدانه . وهل يدخل ميدان الحرب والجهاد . عار من الدرع والغضب والجواد . ومن لا في الحرب يتيّر لبسه . فليس يحتاج الي نفسه . فان القرن لا يرحم قرنه العريان . اذا احدق نحوه

السان . فان كنت اهلا لما اهلوك . وما وصفك به اهلوك . فارفع عن بعض الخطب المبتكرة . ستر نقابها . ليرتع [ ٤٩ ] الخاضرون في بهجات نور خطابها . ولا تخلي عن تعاليم العلما القدما . ولا تكلني الى تراجم الخطبا الفضلا . فانني اخبر منك بما علموه . واعلم منك بما ترجموه . وليس كل قاري الخط يدعي خطياً . ولا كل حافظ شعر يسمى اديباً . اجابني لا والذي نجّا النفوس من ورطة الخطية . وانقذها من الاسر الشيطانيّة . ما خطبت يوماً خطبة مبتكرة . ولا وعظت بموعظة مستّره . ولست ممن يدعى ما ليس من اهله . ولا من يكون كلامه اجل من فعله . ولكن عند اجتماع الجماعة الي البيعة في الاعياد . وفي ليالي الصيام والاحاد . اورد عليهم المقالات المشهورة من الكتب المسطورة . تارة من كتب يوحنا فم الذهب . ومرة من اي كتاب خطر من الكتب . قلت يا هذا وما تفرض الّا وقد حضرت بعض الايام في موضع غريب . وقد اشتهر عنك الواعظ الخطيب . فطلب منك فايدة للحاضرين . ونفع النفوس المومنين . بموعظة حاضرة او خطبه . جاذبتني النفوس [ ٥٠ ] الى التربة . الحسن ان تقول دعوني حتى امضي الى مساردين . واحضر لكم بعض كتب المعلمين . او اخرج الى سوق الكتبيّة . فربما وقع فيه بعض الكتب الوعظية فتعرض لك مثل قضية بعض القسان . وقد حضر بعض البلدان . وكان قد الف القراة في انجيل له مختصر . مجلد بجلد احمر . فاستدعى عند قراة الانجيل . على سبيل الوقار والتبجيل . فدنا ورفع الانجيل وصلّب علي من حضر . وفتح الفصل واطال فيه النظر . فلم يعرف منه لا ما قل ولا ما كثر . فلما بقي ساعة والانجيل مفتوح لديه . والجماعة تنظر اليه . وهو ينظر مرة الي تجليده . وتغير جلده عليه وتسويده . وتارة الي ورقه وخطه . الى ان فات الوقت وجار حد شرطه . فقال له بعض الحاضرين . لم لا تقر الانجيل على المومنين . فقال ما امر هذا الانجيل صحيح . لان الانجيل يكون عليه جلد احمر مليح . وهذا جلده اسود وخطه دقيق [ ٥١ ] وجلكه غليظ . وورقه رقيق . ثم انصرف والجماعة تضحك علي جهله . وتعجب من سوء فعله . فلا تقنع لنفسك انت بمثل هذه الاحوال . وترضى بالاسم دون الفعال . فوحق الذي يخص من يشا برحمته . ويفيض على النفوس العاملات خيرات نعمته . لا يفيد

الصعلوك . اموال في خزاين الملوك . ولكن ثوب خليع للعريان . احب اليه من الف ثوب في خزائن السلطان . ومع هـذا فلو اعترفت بتقصيرك . حملت على العذر في امورك . فالمقر بالذنب يستحق الشمول بالرحمة . والمصر على الخطيـة يستوجب حلول النقمة . ولو اعترف ادم بخطيته . غفر له عظيم زلته . ولكن اخطأ واصر على الخطية . فسقط في تلك المنزلة العلية . اجابني تقله لقد اوجعتني بسياط عتبك وملامك . واقلقتني بنبالك وسهامك . وهانا معترف بالقعود عن القيام . بواجبات ما سالت . فان اعتذرت عن الايضاح بما قلت وتاولت . علمت انك قد موهت للقول علينا وتقولت . وحسبك لايضاح مقالك [ ٥٢ ] ويكفيك سايلا سوالك . فلما رايته قد تالم من ملامي . ولمحت منه التململ من سهامي . ومن دفعته التشكك في كلامي . علمت بانني ان لم اظهر درتي . واصفع راس الظن بردتي . ما في القوم من يقبلن عثرتي . وعرفت ان عيون الجماعة تعتبر مواقع اللفظ . طمعاً في الرد على بعض الخطب والوعظ . فقلت لهم ارفعوا ستاير الجهالة عن لمحات بصايركم . وانزعوا اطمار الملالة عن لحظـات ضمايركم . تنظروا حسن العرايس . في افخر الملابس . ثم بادرت اورد خطبتي محترساً من الغلطات . واسرد موعظتي حذراً من السقطات . قايلاً والعيون ترمقني . وسهـام الظنون ترشقني . الحمد لله الفاخرة نعمته . الفاخرة رحمته . الغامضة حكمته . الفائضة عنايته . الظاهرة شفقته . الباهرة عظمتـه . القادرة قدرته . القاهرة سطوته . والشكر لله القديم الذي تاخرت عن قدمته قدمة القدمـاء . والعظيم الذي خضعت لعظمته [ ٥٣ ] عظمة العظماء . الحكيم الذي حارت في حكمته حكمة الحكماء . العليم الذي عجز عن علمه علم العلماء . احمده حمداً كما هو اهلاً للحمد والثنا . واثني عليه في كل صباح ومسا . معاشر البشر فجروا ينابيع العبرات فقد آن لها ان تتفجر . شمروا ذيول الخطيات فقد ازف لها ان تتشمر . الام سيوف الشهوات تحطم راس افكاركم . وحتام حتوف الزلات تهدم بنيان اعماركم . اغمدوا صوارم الخطيات في اغمدة الحسنات . واعمدوا الى رفع غرايم الجهالات . عن اعمدة الميل الى الشهوات . امطروا صفحات الخدود بامطار العبرات . وكرروا لمحات العقول في دار الحسرات . تبصروا دارا وجودها عدمان . وجودها حرمان . صحتها سقم . وفرحتها غم . وتورها ظلم وبروزها الم . شهدها مر . قندها صبر .

وردها جمر . ورعدها فقر . حقها ظلال . وصدقها محال . فيا لها دارًا قد سلبت عساكر لذاتها افكار الخلايق . ودنيا قد حجبت ستاير شهواتها انوار الحقايق. فتكت في اعمار [ ٥٤ ] ذويها وهتكت استار اهليها . ولو لم تكن منزل اللعب والطغيان . ومحل الكذب والبهتان . لما عذبت في السن الرايقين مرارة علقمها . ولا حسنت في اعين الرامقين دجيات ظلمها . ولا صفت لاوهام الشاربين اقدار اكدارها . ولا عشقت اقدام الداعين احجار اوعارها . ولا شاف الناظرين قتام ضبابها . ولا راف للعالمين غيام طغيانها . اسدلت والله استار عقلاتها . على ابواب الافهام . واشغلت بالله خمار جهلاتها في البـاب الانام . حتى غرقت في لجج الانام افهام البرية . واسرقت في مهج الانام سهام الخطية . فاضحى المحال للمخدوع بها كانه صدق . ووافا الظلال للمطيع لها كانه حق . الا نادم على الورطة في نار الشهوات والارادات . الا قادم الى الغبطة في دار الخيرات والسعادات . الا قايم من الهبطة في منار المسرات والكرامات . اين علامات الاشعار بالعيوب يا ذوي الاذان . ام اين قلامات اظفار [٥٥] الذنوب يا اولي الاذهان . اين حسرات الندم . على عثرات القدم . اين المسامع المايلة الي الموعظات . ام اين المدامع السايلة على الخطيات . اين تقاطر غزارة عبرات الاجنان . لتذكره حرارة جمرات النيران . حيث يقول المطيع للدار . الفانية . واحسرتاه . والمضيع للدار الفاخرة واحيرتاه . والمبيع الدنيا بالاخره واقرتاه . حيث لا يسمع قول المعتذرين . ولا ينفع مال المتدخرين . ولا يمنع مال الهاربين . ولا يقنع امال الخايبين . فيا فرحة الزارعين يوم حصاد الغلّات . ويا برجة الضايعين حيث اتحاد الحسنات . ويا حسرة الفاسقين اذا احدق سنان الفضايح . ويا حيرة السارقين اذا نطق لسان الجوارح . ويا مسرة المتقين اذا صدق برهان العمل الصالح . يوم تعلم الابرار حق مقامهم في دار النعيم . وتفهم الاشرار صدق دوامهم في نار الجحيم . فيا لها وقفة ما اقلق احكام جبارها . وما افرق اصطدام جبارها . وواهاها ساعة [ ٥٦ ] ما احلى مذاق اثمارها . وما اشهى اوراق اشجارها . وما احر الحسرات في جدارها . وما اضر الزفرات في نارها . واحر العبرات في قرارها . وما اقرّ الابصار بشريف أزهارها . وانوارها . هذه غاية الخلق فاين العاملون . وهذه اية الحق فاين الاملون . ولقد انذر في قوله الصادق في القايلين . وحذّر في

الجليل خالق العالمين . واعلن قايلًا للسامعين . سيظهر برهان الاخرة يقيناً . وتبصر الدنيا محالًا . وتعتبر الحرفان الظاهرة يميناً . وتقهر الجدا شمالًا . يوم يقرن الملك بين الصنفين . ويفرق القاضي بين الصفين . قايلًا للابرار ادخلوا الدار الالهية المعدة لكم قبل وجود الازمان . عادلًا في الاشرار ان تحملوا الى النار الابدية المعدة لجنود الشيطان . جعلنا الله واياكم ممن اعدّ تطيب غلته . قبل تلهب علته . واستعد للقاء مسه . قبل سقا نفسه . وتاهب للشمول للرحمة . قبل النزول الى الظلمة [ ٥٧ ] واستوجب الحلول في النعمة قبل حلول النقمة . بشفاعة السيدة البتول والدة الرحمة . وام الحياة ذات الطوبا والنعمة . وشفاعات الابرار والصالحين . والشهدا والقديسين امين . فما نجزت الخطبة البديعة الفاخرة . والاسماع واعية الي مقاصدها الباهرة . الا وقد ذرفت المحاجر قدرها . وقذفت البصاير درّها . واخذت الجماعة تذكر الاخره والممات . وتقطر على الخدود سحّابيب العبرات . وتارة يشكرون الموعظة وتضادد الكلمات . وتجانس القرائن واللفظات . وموقع معانيها من القرايح . واطنبوا القوم في التذكار الصالح . الي ان اخجلوني بالثنا . والمدايح . فالتفت الراهب عبد المسيح . يجول في ميدانه الفسيح . قايلًا وحق سيدنا يسوع المسيح . لو حضر هذه الخطبة قس . وقد خطب علي منبره قس . لنزل عن ناقته خاضعاً . وقبّل اقدامه طايعاً . افلحت والله الفلاحة . ولها على الامم من الان الاباحة . لما [ ٥٨ ] اثمرت من الحكم والفصاحة . فتبارك الذي رفع المتواضعين . وضع المفتخرين . ولقد والله اظهرت الدره الثمينة في صدف الكلام . ونظمت الالي الثمينة احسن نظام . وبالجملة فحيث قد التذت بهذه الموعظة النفوس . فلترجع الي معاطاة الارطال والكؤوس . ولا باس ان يرجع تلميذ صاحبنا تلك الكسرات الاوعية . ويرجع الى تلحين اشعاره الخمرية . ولا يخرج بنا الي ايراد الاشعار الشيقة . فما يليق هذا الفن بهذه الجماعة المسيحية . قال صاحب الدار والله لقد اصاب سهمك الغرض . واجاب قصدك المفترض . اجل جوادك ايها التلميذ في هذا الميدان . وحيث الان قد اخذت حظها الاذهان . لا يتحسن من المسرة نصيب الاذان . ولكن لي ما اميله عليك مرتجلًا . وانظمه الان لا مستعيرًا ولا منتحلًا . هذا بعد ان تطوف علينا الكؤوس . متزعة الحانات والرووس . فدارت الاقداح على القسوس .

[ ٥٠ ] واشرقت في اكفهم مثل الشموس . والتلميذ يرجع صوته ويلحن . وهو يملي عليه ارتجالاً بافصح الالسن :

الا روي الجوارح يا نديمي براح من بقية كرم نوح
الا وامزج بها روحي وجسمي كما اتحدت جسدا الجسم روحي
فاشرف منحة عند النصارى اتحاد جسومهم بدم المسيح

فاقسم انه لما بلحن الابيات . وعاد التكسيرات والحركات . وقد اطافت علينا السقاة بالكاسات . ووددت لو ان كل شعرة من جسمي اذن تسمع . وكل جارحة مني فم ينهل ويكرع . وبينا نحن ندير تارة كوس الراح . ونستجلي مرة عروس المراح . ونتوارد السعيه . ونتذاكر الاخبار الدهرية . وقد عاد صاحب الدار الي . واخذ كاساً وجلس بين يدي . ثم قال هذا الكاس عندك . فلا تخيبن في القصد عبدك . وانني مع ذلك مقترح علي خاطرك الكريم . ما يعود الينا منه النفع العظيم العميم . قلت اما كاسك فمقبول . واما سؤالك [ ٦٠ ] فلا ينكره المسؤول . فاشرب الكاس مترعاً . واعده الي مسرعاً . ثم عد الي الامتحان والخطاب . وبالله المستعان على الجواب . فجعل يتجرع الكاس الملان . مثل ما يكرع الزلال الظمان . فلما شربه وعاد ودغدغه واستفه نحوي وشمشمه وقبله ثم ناولنيه . مكللة حافاته حواشيه . ثم جلس في مكانه . والجماعة تنظر مخرج امتحانه . قال يا ايها القس الاوحد . والاخ العالم الامجد . كان اصحابنا ارتابوا امر خطبتك الفاخرة . وما اودعتها من العبارات الباهرة . مع تلك الفصاحة الجليلة الفايقة . والقرائن الغريبة [X] فمنهم من قال انها تلقين وتسليم . ومنهم من قال انها من بعض العلما تعليم . وليس النار من زنادك . ولا هذا الركض لجوادك . ومنهم من قال ان القول قولك . والكلام كلامك . والقوس قوسك . والسهام سهامك . فان كان ذلك الصباح . يبلج من مشرقي فجرك . وذلك التبسم صدر [ ٦١ ] عن ماخذ ثغرك . فلا تتركن سموم الظنون تلهب انوار زهرك . وقتام الشكوك يحجب انوار فكرك . وقد عرف ان ارتجال الامتحان . يفصل بين الحق والبهتان . فان شيت تحقيق الحق وكشف اليقين للصدق . واظهار الباطل والشك . فاعرض ابريزك للمحك . وهانا مقترح عليك ما يكشف امرك . ويظهر سرك . ويحقق

اما برهان فضلك . او بيان جهلك . قلت اجل والذي جل عن الادراك بالاوهام . وتعظم ان يفهم بلطيف الافهام . لقد فوقت عن قوس العدالة سهما صايباً . فلم يخطر الغرض ولم يمض خايباً . وليس ابرزي مما يهرجه الحك . فدونك واظهار المحك . فانني لا اخشى عليه ولا من السبك . قال فاريد ترقم لي في هذه الساعة . بخبر من هذه الجماعة . خطبة عربية . عربية بكراً معربة مسلية وعظية . جامعة للتعازي والموعظات . لايقة بحافل الاموات . تذكر فيها الموت وشدة مراراته . وبجرع غصص علقم كاساته . وآلام زفراته وحسراته . [ ٦٢ ] وشدة قلق المرء عند وفاته . ثم تذكر فيها احوال هذه الدنيا وعبراتها . وسعادة الاخره ولذاتها . وراحة النفس النقية بمفارقة الشهوات الجسمانية . ووصولها الى الخيرات الالهية . ويرصع تاجها بافخر الدرر السنية . ويحلي نحرها باحد الالي الفكرية . فاقول ان هذه الخطبة تجذب الى البركات . وبها الخطب في هذه الايام في محافل الاموات . فقد قيل ان فضل الخريف اردا الفصول . لامزجة البشريين . سيما لذوي الامزجة الباردة اليابسة والطاعنين في السنين . وقد شاهدتم مكابر شيوخ ماردين . حتى قد تاطح اكثرهم عشر التسعين . واقول ان هذا يفصل بينهم وبين الحياة . ويوصل حبلهم بحبل الوفاة . وما يحاوا ان ينضاف اليهم من قد غلب على مزاجه البرد واليبس او يكون قد غلط عليه قلب هذا المولي الشمس . فهو الذي كان سبب الكساد . وقليد الصحة الى العباد . ويليق بنا اذا حضرنا الي وفاتهم . وكملنا تخيرهم وصلاتهم . ان نعزيهم [ ٦٣ ] بما يحسن من التعازي اللايقة . ونسلي الجماعة بما يليق من الالفاظ الرقيقة الرايقة . وليس هذه الفايدة لي وحدي . لكن ولساير الانام ممن ياتي بعدي . فقلت له فكان الناس ينفعهم سوالك . بقدر ما تضرم امالك . وان كان يفيدهم اقتراحك . فانه يبيدهم ارتياحك . اجابني لا يلزمك من اشجاني ولو كان جدير بالرزايا . ولا من الاماني وان كانت جاذبة المنايا . فلا يركض في ميدان المغاطة . على جواد التسويه والسفسطه . فلا يلزم لغير شكره . ولا يجمل الانتهاء بغير ثنايه وذكره . لان منه ابتدا كل ابتدا . واليه انتهى كل انتهى . احمده حمداً معترف بجميل نعمايه . معتصم بجميل الايه . شاكر لشرا نعمه صابرا لضرا نعمه . واثني عليه حتى يبطل مني حراك اللسان . يوم تبيدني

اشراك الاكفان . معاشر البشر ما للابصار ناظره وكانكم لا تنظرون. وما للاسماع سامعه وكانكم لا تسمعون . ما للاطفال يسلبون . وكانكم راقدون. ما للشبان ينهبون . [ ٦٤ ] وانتم لا تتعظون . ما للشيوخ يذهبون . وانتم مخلدون . حيوك الموت تحث رواكم وانتم لا تلتفتون . سيوف القضا تقصم اعماركم وانتم لا تستفيضون . حتى كان الموت قد سافر عن دياركم . هيهات وعساكره تقفوا مواقع اثاركم . الامَ هذا التماطل والحق قد وجب . وحتام هذا التأجل والموت قد قرب . الطكم تومأون الفرار من الخطب الملم . او القلوب منحوته من الصخر الاصم . فان عتقت عندكم الرزايا . او نسيتم حلول المنايا . فانظروا الى هذه الحادثة الحديثة الطرية . وتفكروا في هذه المصيبة الجديدة الردية . واعتبروا بما حل عندكم من هذه الرزية . وانظروا من شيد ورفع . وبدد وجمع . وتاه في الدنيا تيه المخلدين . واجتهد فيها اجتهاد الموبدين . وحرص في تحصيل الدرهم والدينار . واعمر ما دبر من المنازل والديار . ومايل في السمو محل السماء . وقابل في العلو رتبة الجوزا . وبهر بالذكا صنوا الذكا . وقهر بالارا صعاب الاشيا . كف حالت [٦٥] علية عساكر القضآء . فاصبح بعد العز عزيز العزا . وعهدي به بعد ذلك العز الحنيف . والمحل الشريف . وهو يتقلب بطنا وظهرًا . ويتحسر سرًا وجهرًا . وينظر الى المال والاولاد شزرًا . يبسط يده اليمنى ويجمع رجله اليسرى . فلا يقلع حسره الا وفي اثرها اخرى . حتى برق اني القلق . واحدق الفرق . واشتدت منايا مصايبه . وامتدت حنايا حواجبه . وانقطع رجا اقاربه . وانقطع عطا حبايبه . لا يكاد يردد الطرف بين الالحاظ والاغماض . الا وقد اخفي السواد تحت البياض . وظل يتجرع امرّ الكاس امر من الحماض . فيا له حبيباً لا يلتوي على احبايه . وتربا اشغلته المصيبة عن اترابه طريحا كئيبًا حسبه مايه . وواهاله لدينا لا ترقى لمته . وراحلا لا ترجى اوبته . وراقادا ما ان يرى نقصته . قد يتقن بسفره الى الابد . واذعن بمفارقة الاخ والولد . لمثل هذه الساعة فليتزرع الزارعون . ولمثل هذه [ ٦٦ ] الوقفة فليعد الجامعون . نبهوا الافكار من رقدة الخطية . قبل ترقد الابطار الرقدة الابدية . تحملوا فهذا سبيلكم . وتحملوا فقد دنا رحيلكم. كانكم بروس اقدامكم . وقد لحقت اعقاب السالفين وطروس انامكم .

وقد الصقت في صحايف الاولين . كانكم بلحظات الطرف وقد خمدت . وحمرات الاطراف وقد بردت . وحركات الاعطاف وقد جمدت كانكم الوجوه البهية وقد اقتمت . وبالنواظر المضية وقد اعتمت . وبالاعناق السقية وقد مالت . وبالمحاسن الجميلة وقد استحالت . كانكم بصارم الموت وقد ابرق . وبجرق المنون وقد تالق . وبقلق الساعة وقد افلق . وبجمع الاحباب وقد تفرق . فغفر الله لمن سارع الي معالجة دايه . من قبل يعز وجود دوايه . قبل ان يبرد العرق . ويشتد القلق ويميل العنق . وسامح الله من اسبل ذيول الحسرات . واسدل ذيول العبرات . على ما صنع من الجهالات . لا على مفارقة الضيف الراحل عنا . [ ٦٧ ] والعضو المنفصل منا . مع علمنا انه رحل عن محل الشقا . فنزل في محل البقا . فاضل الدار الحسية . وواصل الدار العقلية . طعن عن منزل الحسرات . وقطن في منازل الخيرات . فارق النقطة الكثيفة البرانية . وقارن الدايرة اللطيفه السماوية . انتقل عن ربع الندامة . وحل في حمى الكرامة . وكانني به وقد وجد الراحة الشريفة . واللذة الطاهرة اللطيفة . في المنازل التي لا عين نظرت ابعدها من الكثايف الارضية . ولا اذن سمعت بحس نغماتها بالتسبيحات الالهية . فسبحان منشي البرية . والواهب له هذه النعطة السنيه . والموهبة الحسنة الزكية . وذلك لما قدمه من الاعمال الفاضلة المرضية . وبعده عن الرذايل الشنيعة الدنية . ثم دارت الكاسات على القسوس . الى ان وثب صاحب البيت المحروس . وقال يا اخوتي قد استقام الطالع المنكوس . وغاب نجم الحظا المنحوس . وظهر نجم الاقبال . وبلوغ الاماني والامال . [ ٦٨ ] وهذه امارات السعادة لايحة . ورياض الاقبال عطرة الرايحة . وما اظن هذه الخطبة تخفي عنا وعرضاً . الا وقد اصاب سهما عرضاً . ومن الذي يسمعني اخطب بهذه اللفظات . على من يكون قد سلف له من الاموات . فيقنع لي بالحق اليسير . او يقابلني بالشي الحقير . ولو انه البايس الفقير . اقول انه تضاعف حقي ولو بغير استحقاق . او علي وجه الحيا وصرنا من النفاق . ولو انه انجل الناس على الاطلاق . وفق الله مستحقاً من الاموات . واول من تتلا عليه هذه الايات . لتكون مفتاح الخير والبركات . فما اسعد من كان سبباً للخير والسعادات . ثم انه عاد الي تلميذه قايلًا حيث الان قد تكاملت الاماني .

فاغتنا بنعماتك عن الاغاني . وعن اصوات المثالث والمثاني . فقد ان تطرف علينا القناني . وانشدني يا ولدي بحياتي ما املته عليك من ابياتي . فطفق التلميذ ينشد . وهو يملي عليه ويسرد :

[٦٩] الا فاسقني بيت الدوالي ففي كاساتها نعم الدوالي
اجل خريدة صان النصاري نست بين المدائح والقلالي
وحاق سرها في القول جهرًا وفي اغفيله رب الجلالي
تسلمها الحواريون عهدًا جديدًا للخلاص من الضلالي
اعيرت من سنا الايام نورًا وتيجان النجوم من الليالي
وجالت في ثياب من عتيق يكلله باجناس اللالي
اذا الساقي جلاها قلت قرن الغزالة في مقارنة الغزالي
يمينًا لا نصدوا عن يميني شمول سلافه أو عن شمالي
فان حرامها في نص ديني اذا مزجت احل من الحلالي

نجزت دعوة القسوس
ولله الشكر والسبح
دائمًا كثيرًا ابدًا